الوسطية من أبرز سمات المجتمع الإسلامى الفاضل

ينشد الإسلام من أتباعه أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس، ومن أجل أن يصبحوا كذلك وجبت على المجتمعات أن تستكمل عناصر الأفضلية والخيرية، وهى عناصر ليست صعبة ، ولا شيئاً مستحيلاً ، فهى تتركز فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

كما تتمثل فى تطبيق هذا الإيمان عملياً بما شرعه الله تعالى من عبادات ومن عمل واجب على كل إنسان.

وحتى تأخذ هذه السمات المثالية موقعها من حياة المجتمع لا بد قبل ذلك من أن يتخلى عن كل ما يُسىء إلى الحياة الإسلامية فى كل جوانبها، ولذا كانت التخلية مقدمة على التحلية، وكان تجنب الرذائل مقدماً على التحلى بالفضائل.

ومن أخطر الرذائل التى يمتد أثرها السيِّئ إلى الجوانب الأخرى: الجانب المادى والمعاملات المالية فهى - غالباً - تكون من أهم أسباب الخلافات الدينية والأخلاقية والاجتماعية بين الناس.

ومن أجل ذلك حذر الإسلام من أخطر تلك المعاملات المالية وهو « الربا»

فحذر منه، ونهى عنه، لما له من آثار سيئة فى سائر جوانب الحياة الخلقية والاجتماعية والنفسية، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

ثم أمرت الآيات أن نتقى النار التى أعدت للكافرين، وأن نطيع الله والرسول رجاء الرحمة الكبرى بنا.

وجاءت الآيات الكريمة موضحة هذه الحقائق فى أبهى صورها، حيث قال سبحانه :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران، آية (١٣٠).

(٢) سورة آل عمران، الآيات (١٣٣-١٣٦).

لقد جاءت هذه الآيات الكريمة تحمل سمات المجتمع الإسلامى الفاضل، وخصائصه المثالية وعناصر تقواه.

قد أمر الله عباده بأسباب المغفرة والجنة، ووجَّههم إلى المسارعة فى ذلك وجاء التوجيه الربانى بصيغة تقتضى هذا الجزاء العظيم، الذى أعد لهم، لأنهم اتقوا ربهم حق تقاته، وقدم الجزاء أولاً ليبين أنه المتكفل به والضامن له، ثم ذكر - بعد ذلك - سماتهم وأوصافهم، ثم ختم الوصايا بما بدأ به، ببيان الجزاء :

﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾[1].

فوضحت الآيات أن هذا الجزاء إنما جاء وفق إيمانهم وعملهم وفضل ربهم سبحانه وتعالى، لأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وليوضح أيضاً أن الجزاء مؤكد عند الله سبحانه وتعالى.

وخلال حديث القرآن الكريم، عن أوصاف المتقين، الذين سموا فى أعمالهم إلى مراقى الفلاح، وكونوا بمثاليتهم أرقى مجتمع إنسانى على ظهر الأرض ، وفى معرض تعداد الأوصاف ذكر القرآن الكريم نوعين من

---

(١) سورة آل عمران ،آية (١٣٦).

الأعمال، عليهما تدور سعادة الأمة التى ينتمون إليها، سعادة حسية مادية، وأخرى نفسية ومعنوية:

أما الأولى الحسية المادية فتتمثل فى الإنفاق فى السراء والضراء.

وأما الثانية النفسية المعنوية فتتمثل فى كظم الغيظ والعفو والإحسان والتوبة إلى الله.

توضح هذه الملامح الآيات الكريمة:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾ (١).

لقد جاءت الآيات الكريمة، حاملة سمات المجتمع الإسلامى الفاضل تكتنفها آيات سابقة تناولت معركة جدال ومناظرة، وآيات لاحقة تناولت معركة حرب وقتال فى يوم أحد.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات (١٣٣ - ١٣٦).

فجاءت هذه الآيات الكريمة بعد الآيات الأولى فأدارت حواراً وتربية وتوجيهاً للنفس الإنسانية خلال الدخول فى الحديث عن يوم أحد وعن القتال، بياناً لتكامل المنهج الربانى من جميع الوجوه، عقيدة وعبادة وأخلاقاً وجهاداً.

وابتدأت الآيات بنداء المؤمنين، وندائهم بوصف الإيمان يفيد حضهم على ما يدعوهم إليه وحثهم على السرعة فى الاستجابة التى سيطالبهم بها وعدم الإهمال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (١) فنهى عن أكل الربا فى كل أنواعه.

وليس قوله: ﴿ **أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً** ﴾ شرطاً فى تحريمه، بل هو بيان للواقع الذى كانوا عليه، أما حكمه فهو حرام ـ كثر أو قل، كان أضعافاً أو لم يكن كذلك ـ قال الله تعالى موضحاً صورة أكلة الربا، وتحريمه ومحقه للمال مهما زاد، ووعيده لآكليه المصرين عليه:

﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ**

(١) سورة آل عمران، آية (١٣٠).

لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾[1].

وما هذا البيان لخطورة الربا ونهاية صاحبه ووعيده بحرب من الله ورسوله إلا لما فيه من إفساد للحياة الخلقية والاجتماعية والنفسية، وإفساد لحياة الإنسان كلها فأرادت الآيات الكريمة تنقية البيئة الإسلامية من هذا الفساد وعلاجها من تلك الأمراض لأن لها أسوأ النتائج فى الحياة المعيشية، وفى المعارك الحربية ؛ فلا ينتصر المرابون فى حياتهم ولا معاشهم، فالله يمحق الربا، ولا فى حروبهم؛ لأن الله تعالى ينصر من ينصر دينه وينفذ تعاليمه.

وجاء النهى عن أكل الربا أثناء الحديث عن غزوة أحد، كما جاءت هذه السمات المكونة للمجتمع المثالى أثناءها، لتوضيح أن تطبيق التعاليم بدون

---

(١) سورة البقرة، الآيات (٢٧٥ - ٢٨١).

توثيق الصلة بالخالق والقيام بحق المجتمع لا يتم بذلك النصر، وأن النصر فى المعارك الحربية وغيرها لا بد له من النصر على النفس الأمارة بالسوء وعلى أهوائها، وأن مخالفة رسول الله ﷺ يترتب عليها ما لا تحمد عقباه، كما حدث فى يوم «أحد» فجاء فى سياق الحديث عن هذه الغزوة التوجيهات البانية للمجتمع لتكون واقعية وعملية.

وعقَّبت الآيات على النهى عن أكل الربا بالأمر بالتقوى رجاء الفلاح ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] كما حذَّرت الآيات من النار التى أعدت للكافرين ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [2] لينبه إلى أنه لا يأكل الربا من يخاف النار التى أعدت للكافرين، وأنه لا يأكل الربا مؤمن بعيد فى إيمانه عن الكافرين، وإنما يستحله ويأكله من كان قريباً منهم ومن أفعالهم.

وفى ذكر الكفر تشنيع لأمر النار، أو أن أكلة الربا توعَّدهم الله بنار الكفرة، إذ إن النار سبع طوابق [3] العليا منها وهى جهنم للعصاة، والخمس للكفار، والدرك الأسفل للمنافقين، فأكلة الربا إنما يعذبون يوم القيامة بنار الكفرة، لا بنار العصاة؛ فالألف واللام للعهد.

---

(١) سورة آل عمران ، آية (١٣٠) .

(٢) سورة آل عمران ، آية (١٣١) .

(٣) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ، طبع وزارة الأوقاف المغربية.

ثم أمرت الآيات الكريمة بطاعة الله وطاعة الرسول ﷺ حتى يحظى الناس برحمة ربهم ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ (١) .

وجاء هذا التوجيه بعد النهى عن أكل الربا لبيان أنه لا طاعة لله وللرسول فى مجتمع يقوم على النظام الربوى، ومن وقع فى ذلك فعلاجه أن يطيع الله والرسول لعله يحظى برحمة الله تعالى.

ويدخل فى طاعة الرسول ﷺ طاعة ولاة الأمر القائمين على تعاليم الإسلام لقوله ﷺ : « **من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى ومن عصى الأمير فقد عصانى** » (٢).

***

(١) سورة آل عمران ، آية (١٣٢) .

(٢) رواه البخارى فى « الجهاد » .